حديث السعودية
الإثنين 9 جمادى الأولى 1446هـ
الموافق 11 نوفمبر 2024م

مدينيات

باحث في تاريخ المدينة..!

د. محمد إبراهيم الدبيسي

..ولا مشاحة في الاصطلاح، ولا ضير في الاهتمام بهذا الجانب أو ذاك، من جوانب الثقافة والمعرفة، أو العمل الهادف، شرط إدراك قواعده، ومعرفة أصوله، والتزام شروطه، ولكلٍّ أن يصف جهده بما شاء، وأن يصنّف نفسه كما يشاء؛ شرط أن يكون واعيا بما اتخذه وصفا له، ومتمكّنا بما نسب نفسه إليه، وملمًّا بالفنّ أو العلم أو النشاط الذي زعم معرفته، وأهليته للقيام به، أو الحديث حوله، وتصدير نفسه من المختصين فيه، دون تزيُّد أو شطط أو ادعاء. أقول ما سبق؛ لأنّ عنوان المقالة أعلاه: (باحث في تاريخ المدينة)؛ عمَّ حتى غمَّ، كما كان يقول عبدالقدوس الأنصاري -رحمه الله- عن مصطلح: (أديب) في زمنه.

نعم، عمَّ وانتشر وشاع أمر هؤلاء، الذي يدعي كلٌّ منهم أنه: «باحث»، وأصبح ما يصفونه بتاريخ المدينة مدعاة لواهمين وموهومين باستحقاق الوصف العلمي الرفيع، لغايات غير علمية وغير رفيعة، وأسهم انتشار المنصات الرقمية، وحسابات التواصل في بثّ محتوى هؤلاء وانتشاره، وأسهمت وفرة المخزون المعلوماتي المتعلق بتاريخ المدينة في المواقع العلمية الإلكترونية، في مجانية ادعاء هؤلاء معرفة تاريخها، وأحيانًا اكتشاف بعض معالمها. ولا يقتضي الأمر -عند هؤلاء- أكثر من انتهاز محرك البحث للوصول إلى المعلومة، ومن ثمّ تصوير أحدهم نفسه بجانب هذا المعلم التاريخي أو ذاك، والإفضاء بما نقله من هذا الموقع أو عبر ذاك المحرّك، وإن كانت المعلومة التي يبشّر بها خاطئة، أو ناقصة، أو شائعة مستهلكة معروفة.

المهم؛ هو ادعاء الاختصاص، والتباهي بالوصف: باحث، مؤرخ... إلخ، والتفاخر الواهي بالانتساب إلى هذا الحقل العلمي الجليل الشريف: تاريخ المدينة المنورة. ذلك التاريخ الذي قضى الإمام الحافظ عمر بن شبة النميري (ت 262هـ) نحو خمسين عاما من حياته ليكتب فيه كتابه القيّم: (أخبار المدينة النبوية)، وقضى عبدالقدوس بن القاسم الأنصاري (ت 1403هـ) خمسة عشر عاما من حياته ليكتب بحثه العظيم في آثارها: (آثار المدينة المنورة)، وقضى الشريف إبراهيم العياشي (ت 1400هـ) عشرين عاما من حياته كي يكتب كتابه المرجعي الأصيل: (المدينة بين الماضي والحاضر)، وعكف الأستاذ الدكتور عبدالعزيز كعكي أكثر من عشرة أعوام ليكتب موسوعته العلمية الرائدة: (معالم المدينة المنورة بين العمارة والتاريخ).. وغيرهم، من السلف، ومن بعض الخلف من أبناء المدينة، ومن غير أبنائها، من الباحثين الجادين المحترمين، الذين أخلصوا للمعرفة، وعرفوا قيم العلم واحترموها، وخبروا قواعد البحث والتزموها؛ فحقّ أن توصف جهود مثل هؤلاء بالبحوث التاريخية والمقاربات العلمية قيّمة المحتوى، عميقة المضمون، ثرية الأثر. وهي كذلك في موازين العلم، ومعايير البحث العلمي الرصينة.

غير أنّ هذا التاريخ الخالد وقضاياه المهمة دقيقها وجليلها؛ تاريخ مدينة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وآثارها ومعالمها، لم يعد فقط حقلا علميا وشأنا رفيعا؛ يتناوله الأكفاء المؤهلون المقتدرون؛ تخصّصا وقراءات وتبحّرا، ووعيا بأصوله وجوهره ومسائله، بل صار مستباحا يتسلّقه الجاهل بأبجدياته، المتباهي بجهله وفهاهته؛ بفضل الجانب السلبي من تعدد ووفرة وسائل التواصل، ومجانية أقنية الإعلام الفردي، الذي أسهم في استشراء ظاهرة المدعين، وانتشار محتواهم السقيم، ومنتجاتهم الرديئة. والله المستعان.